إلى طلبة التوجيهية :

شـــاعران فى المنفى

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

تمهيد — موضوعات القصيدتين — الصور والخيال — الأسلوب — كلمة عامة ... ...

— ١ —

شاعران مصريان معاصران تغنيا بمصر وأخلصا لها الحب ، فكان جزاؤهما النفى ، أما أحدهما فمحمود سامى البارودى ، وأما الآخر فأحمد شوقى .

نفى البارودى إلى جزيرة سرنديب فى أعقاب الثورة العرابية ؛ لأنه أحد زعمائها وقادتها ، ونفى شوقى إلى الأندلس فى أول الحرب العالمية الأولى ؟ لأنه يناهض الاحتلال البغيض ، ولأنه شاعر الخديو عباس وترجمانه ، وهوى مولاه وهواه مع تركيا ، وهى يومئذ فى صف ألمانيا ضد انجلترا ، وقد حيل بين الخديو ومصر فليبعد شاعره شوقى من مصر .

قضى البارودى فى منفاه سبعة عشر عاماً يتسلى فيها بالشعر ، وينفس به عن نفسه ، وقضى شوقى فى منفاه خمسة أعوام يردد النظر فى شعر الأقدمين ، ويصور ما يعتلج بنفسه من ألم وحنين .

وتجلت فى شعر كل منهما نزعته وطبيعته ، فالبارودى يتحسر على أيامه السعيدة بمصر ، ويكثر من ذكر الروضة والقياس والحسان الماشيات على الجسر ، ويود أن تكتحل عيناه بمرأى مصر ، ويفتخر بشجاعته فى الحرب ، لأنه من رجال الجيش .

وشوقى يأسى على عهده النضير بمصر ، ويتغنى بطبيعتها الفاتنة ، ويتوق إلى الرجوع إليها ، ويمجد ماضيها العظيم ويفخر بجلاله ، ويتحدث بآثارها الخالدة ، ولا ينسى مجد العرب والإسلام فى الشرق والغرب فينوه به ، منساقاً فى ذلك مع ثقافته التاريخية الواسعة .

وإذا كانت النعم أحياناً تجنى من لهب الشدائد فإن نفى الشاعرين بلية أجنت الأدب حلو الجنى ، إذ أثرته بكثير من القصائد الجياد قد بثتها عاطفة جياشة بالألم والحرمان والشوق واللهفة إلى الوطن والخلان .

ونحن الآن نوازن بين القصيدتين المقررتين على طلاب التوجيهية فى هذا العام موازنة تكشف عن نواحى الاتفاق ومناحى الاختلاف .

— ٢ —

ليس فى القصيدتين وحدة ، فكلتاهما ذات أغراض عدة ، ولكنها مما يتداعى فى خاطر الشاعر إذ يذكر وطنه ويحن إليه .

فالبارودى بدأ قصيدته بالشكوى ، الشكوى من الفراق المؤلم المسقم الذى لا يخففه عطف المواسيات ، حتى ليحسبن أنه مجنون لا يفيق ، لأنهن يجهلن داءه ، وما داؤه إلا تباريح الحب المهلك ، ثم يتألم لأنه يكلف بحب من لا يهتمون بأمره ، وكرر الشكوى من الأرق والوحدة حيث لا يجد صاحباً يبثه همه . قال :

ترحل من وادى الأراك كئيب الوجد ... فبات سقيما لا يعيد ولا يبدى
سقيما تظل العائدات حوانيا ... عليه بإشفاق وإن كان لا يجدى
يخلن به مساً أصاب فؤاده ... وليس به مس سوى حرق الوجد
به علة — إن لم تصبها سلامة ... من الله — كادت نفس حاملها تردى
ومن عجب الأيام أنى مولع ... بمن ليس يعنيه بكائى ولا سهدى
أبيت عليلا فى (سرنديب) ساهراً ... أعالج ما ألقاه من لوعتى وحدى
أدور بعينى لا أرى وجه صاحب ... يريع لصوتى ، أو يرق لما أبدى

ولكن شوقى بدأ بدءاً آخر ، فتخيل حماماً ينوح بوادى الطلح ، وناجاه بأن بلواهما متشابهة ، لأن اليد العاتية التى طيرت الحمام من واديه هى اليد الغاشمة التى حرمت الشاعر من وطنه وأهله ، وكلاهما فى وادى الطلح غريب ضائق الصدر يحز الألم فى نفسه ، ولا ينفك يشتاق إلى وطنه ولكنه لا يستطيع الوصول إليه ، وهذا الطائر صديق شوقى لأن الألم يربطهما ، وهو دائم الحنين والذكرى لواديه والحزن على فراقه ، قلق يتنقل من غصن إلى غصن فى فتور واسترخاء باحثاً عن مواس ولكنه لا يجد ،

لأن لأمراض الجسوم أطباء ولكن أسقام الأرواح لا أساة لها ، وشوق يرمز إلى نفسه بهذا التصوير ، وهذا بدء يلائم الحال النفسية للشاعر المبعد من وطنه ، لأن الحمام من طبعه الحنين إلى وطنه وإلفه ، والشعراء إذا ما سمعوا حنينه هاجت ذكرياتهم فحنوا وأنوا . قال شوقي :

يانائح الطلح أشباه عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً ... قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ... أخا الغريب وظلا غير نادينا

كل رمته النوى : ريش الفراق لنا
سهماً ، وسل عليك البين سكينا

إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع ... من الجناحين عمى لا يلبينا
فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا ... إن المصائب يجمعن المصابينا
لم نألُ ماءك تحنانا ولا ظمأ ... ولا ادكاراً ولا شجواً أفانينا
نجر من فنن ساقاً إلى فنن ... ونسحب الذيل رتاد المآسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟

ثم يتفق الشاعران في أن رأى كل منهما برقا يتلألأ حقيقة أو تخيلا ، فاهتاجه إلى مصر ، فالبارودي رأى برقا يلمع فيضيء الجبال والسهول ، فبات ليلته أرقان يرقب النجوم التي أجهدها طول السرى كأنه ملدوغ أو فريسة في مخالب الأسد ، وصور لألاء النجوم بالياقوت اللامع في درع . قال :

ومما شجاني بارق طار موهناً ... كما طار منبث الشرار من الزند
يمزق أستار الدجنة ضوؤه ... فينسلها ما بين غور إلى نجد
أرقت له ، والشهب حيرى كليلة ... من السير ، والآفاق حالكة البرد
فبت كأني بين أنياب حية ... من الرقط ، أو في برثن أسد ورد
أقلب طرفي ، والنجوم كأنها ... قتير من الياقوت يلمع في سرد

ولكن شوقي صور البرق بأن ناره تلمع مقتبسة من النار التي تشتعل في أضالعه ، وصور المطر الذي يعقب البرق بأنه مستمد من غزير مدامعه ، فهو مؤرق طوال الليالي يراقب النجوم ، ويرعى عهد الحب لمصر ، حتى لقد ذوى ونحل ، فصار كزفرة حيرى في الليل . وحمل هذا البرق وهذا المطر تحية إلى الوطن ، وصور المطر بأنه يجوب ظلمات البحر يحرسه جبريل من الأذى والعدوان حتى يصل إلى سماء مصر الأبية التي لا تقبل عطاء الغير وإن كان مطراً مباركا ، وحتى رويت بقطراته حدائق الوادي ومروجه وحقوله وريفه الجميل ، وطالبه أن ينزل على خمائل الوادي في إيقاع رقيق كأنه تغريد وتطريب ، وأن ينزل سلاماً على النبات كما يتساقط الندى على أكمام الزهر ، وأن يواسي منازل الشاعر وأحبابه . قال شوقي :

ياساري البرق يرمي عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمي عن مآقينا
لما ترقرق في دمع السماء دماً ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد : لم تهتك دياجيه ... على نيام ولم تهتف بساليـنا
والنجم لم يرنا إلا على قدم ... قيام ليـل الهوى للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليـل حائرة ... مما تردد فيه حين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب على ... نجائب النور محـدواً بجبرينا
ترد عنك يداه كل عادية ... إنسا يعثن فساداً أو شياطينا
حتى حوتك سماء النـيل عالية ... على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوف اللازورد على ... وشي الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مؤرجـة ... ربت خمائل واهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف في خمائله ... وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منازلنا ... بالحادثات ويضوى من مغانينا

ثم يتفقان في الحنين إلى ملاعب الصبا ومراتع الشباب ، ويصور كل منهما حنينه تصويراً يوائم شاعريته ، فالبارودي يذكر جزيرة الروضة حيث داره ومنبت غرامه ومرتع لذاته وحياته الهانئة ، ويوازن بين حاله البائسة في حاضره وحاله الناعمة في ماضيه فتكاد تفارقه روحه ، ويدعو لهذا المنزل بأن ينزل عليه المطر غزيراً كما كان يدعو العرب ، عما كيا لهم في دعائه ، على أن الروضة التي يحتضنها النيل من جهاتها الأربع في غنى عن هذا المطر ، ويذكر بعض ما لقي من سعادة في هذا المنزل والدنيا مواتية والحياة ناعمة ، وحبيبته وافية . قال :

خليلي هذا الشوق لا شك قاتلي ... فيلا إلى (القياس) إن خفتما فقدي
ففي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى
شفائي من سقمي ، وبرئي من وجدي
ملاعب لهو ، طالما سرت بينها ... على أثر اللذات في عيشة رغد
إذا ذكرتها النفس سالت من الأسى
مع الدمع حتى لا تهنه بالرد